

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ [طه: 51]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَةِ لِمَا قَبْلَهَا:

انتقال فرعون
إلى حُجَّةٍ
فاسدةٍ، بعد
أن أُسْقِطَ في
يده من الحُجَّةِ
السَّابِقَةِ

لَمَّا قَرَّرَ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَمْرَ الْمَبْدَأِ وَالِدَّلَالَةِ الْقَاطِعَةِ عَلَى إِثْبَاتِ الصَّانِعِ؛ جَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ لِبَيَانِ مَوْقِفِ فِرْعَوْنَ مِنْ هَذَا الدَّلِيلِ، وَاعْتِرَاضِهِ بِقَوْلِهِ: إِنْ كَانَ مَا ذَكَرْتُ فِي غَايَةِ الظُّهُورِ، فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى نَسُوهُ وَتَرْكُوهُ؟⁽¹⁾.

وَمِنْ الْمُنَاسَبَةِ أَيْضًا: بَعْدَ أَنْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ أَنَّهُ أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ الْمُخْتَصَّ بِهِ، ثُمَّ هَدَاهُ لِمَا خُلِقَ لَهُ، وَأَنَّهُ لَا خَالِقَ سِوَاهُ سُبْحَانَهُ وَلَا هَادِيَ غَيْرِهِ، فَهَذَا الْخَلْقُ وَهَذِهِ الْهَدَايَةُ مِنْ آيَاتِ رَبُّوبِيَّتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ، وَكَانَ فِيهَا الْحُجَّةُ الْقَاصِمَةُ لِفِرْعَوْنَ، حَيْثُ عَلِمَ أَنَّ هَذِهِ حُجَّةٌ قَاطِعَةٌ لَا مَطْعَنَ فِيهَا بِوَجْهِهِ مِنَ الْوُجُوهِ؛ فَتَرْتَّبَ عَلَى ذَلِكَ أَنْ عُدَلَ إِلَى سَوْأَلٍ فَاسِدٍ غَيْرِ وَارِدٍ، فَقَالَ: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾، أَي: فَمَا لِلْقُرُونِ الْأُولَى لَمْ تُقَرَّرْ بِهَذَا الرَّبِّ، وَلَمْ تَعْبُدْهُ، بَلْ عَبَدْتَ دُونَهُ الْأَوْثَانِ؟⁽²⁾.

❁ شَرْحُ الْمَفْرَدَاتِ:

(1) ﴿بَالُ﴾: أَصْلُ الْبَالِ: الْحَالُ الَّتِي يُكْتَرِثُ بِهَا، وَلِذَلِكَ يُقَالُ: مَا بِالَيْتَ بِكَذَا بَالَةً، أَي: مَا اكْتَرِثْتُ بِهِ، وَبُعِبَّرَ بِالْبَالِ عَنِ الْحَالِ الَّذِي يَنْطَوِي عَلَيْهِ الْإِنْسَانُ، فَيُقَالُ: خَطَرَ كَذَا بِيَالِي⁽³⁾، وَالْبَالُ أَيْضًا: الْقَلْبُ، تَقُولُ مَا يَخْطُرُ فَلَانٌ بِيَالِي⁽⁴⁾، وَهُوَ كَذَلِكَ: رِخَاءُ الْعَيْشِ، تَقُولُ: إِنَّهُ لِنَاعِمِ الْبَالِ، وَرِخِي الْبَالِ⁽⁵⁾، وَالْمُرَادُ بِالْبَالِ فِي الْآيَةِ: كَلِمَةٌ دَقِيقَةٌ

(1) أَبُو حَيَّانٍ، الْبَحْرُ الْمَحِيطُ: 68 / 15.

(2) ابْنُ الْقَيْمِ، شِفَاءُ الْعَلِيلِ: 263 / 1.

(3) الرَّاغِبُ، الْمَفْرَدَاتِ: (بَال).

(4) الْجَوْهَرِيُّ، الصَّحَاحُ: (بُول).

(5) الْخَلِيلُ، الْعَيْنُ: (بُول).

الْمَعْنَى، تُطْلَقُ عَلَى الْحَالِ الْمُهِمِّ، وَمَصْدَرُهُ الْبَالَةُ بِتَخْفِيفِ اللَّامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۖ﴾ [مُحَمَّد: 2]، أَيُّ: حَالَهُمْ⁽¹⁾.
 (2) ﴿الْقُرُونُ﴾: أَصْلُ (قَرْن) الزَّمَنُ الطَّوِيلُ، وَكَثُرَ إِطْلَاقُهُ عَلَى الْأُمَّةِ الَّتِي دَامَتْ طَوِيلًا، قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ بَعْدِمَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ [الْقَصص: 43]، وَفُسِّرَ الْقَرْنُ بِالْأُمَّةِ الْبَائِدَةِ، وَالْقَرْنُ: الْقَوْمُ الْمُقْتَرِنُونَ فِي زَمَنِ وَاحِدٍ، وَجَمْعُهُ قُرُونٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ﴾ [الْإِسْرَاء: 17]، وَيُطْلَقُ الْقَرْنُ عَلَى الْجِيلِ مِنَ الْأُمَّةِ، وَمِنْهُ حَدِيثُ: "خَيْرُ الْقُرُونِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ"⁽²⁾، وَيُطْلَقُ الْقَرْنُ بِمَعْنَى الْحَقِيقَةِ مِنَ الزَّمَانِ، قِيلَ: أَرْبَعُونَ سَنَةً، وَقِيلَ: مِائَةٌ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ؛ لِاقْتِرَانِ أَهْلِهِ فِيهِ وَاجْتِمَاعِهِمْ⁽³⁾، وَالْمُرَادُ بِالْقُرُونِ فِي الْآيَةِ: الْأَجْيَالُ مِنَ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

بَيَّنَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ رَوْغَانَ فِرْعَوْنَ فِي الْاعْتِرَافِ بِالْخَالِقِ سُبْحَانَهُ، بِقَوْلِهِ: فَمَا شَأْنُ الْقُرُونِ الْمَاضِيَةِ مِنْ قَبْلِنَا، الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا أَهْلُهَا بِاللَّهِ، وَعَبَدُوا غَيْرَهُ؟ فَلَوْ كَانَ مَا تَقَوْلُهُ حَقًّا، لَمْ يَخَفْ عَلَى الْقُرُونِ الْأُولَى وَلَمْ يَهْمِلُوهُ⁽⁴⁾.

❁ الْإِبْضَاحُ اللَّغَوِيُّ وَالْبَلَاغِيُّ:

دَلَالَةُ فَصْلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَمَّا قَبْلُهَا:

هَذِهِ الْآيَةُ مَفْصُولَةٌ عَمَّا قَبْلُهَا؛ جَرِيًّا عَلَى الْمَعْهُودِ فِي الْمَحَاوِرَاتِ وَالْمَقَاوِلَاتِ، مِنْ حَمَلِهَا عَلَى أَنَّهَا جَوَابٌ عَنْ سُؤَالٍ مُقَدَّرٍ، أَيُّ: فَمَاذَا قَالَ فِرْعَوْنُ رَدًّا عَلَى مُوسَى ﷺ؟ وَبِذَلِكَ يَكُونُ بَيْنُهَا وَبَيْنَ مَا قَبْلُهَا شِبْهُ كَمَالِ اتِّصَالٍ.

الرَّوْغَانُ عَنِ
الاعْتِرَافِ
بِقَصْدِ الْحَقِيقَةِ
وَالْمُخَالَطَةِ حِيلَةً
لِلْمَعَانِدِينَ

مِنْ بَلَاغَةِ
السِّيَاقِ فَصْلُ
الْآيَةِ عَمَّا قَبْلُهَا
لِدَلِيلِهَا
الْبَيِّنَاتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 233 / 16.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 137 / 7، والحدِيثُ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، بِرَقْمٍ: (2533) لَكِنْ بِلَفْظٍ: «خَيْرُ أُمَّتِي الْقَرْنُ الَّذِي يَلُونِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

(3) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (قَرْن).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 82 / 16، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 298 / 5.

دلالة الفاء في قوله: ﴿فَمَا بَالُ﴾:

فاء التّفرّيع
لها دورٌ في
سياق تفصيل
الحوادث
والمقاصد

الفاء في قوله: ﴿فَمَا﴾، لتفريع ما بعدها على دعوى الرّسالة، ودعوى أنّ النّاس منهم شقيّ وسعيدٌ، أي: إذا كنت رسولاً صادقاً في سائر دعاويك، فأخبرني ما حالُ القرون الماضية والأمم الخالية، وماذا جرى عليهم من الحوادث المفصّلة⁽¹⁾، وكان فرعون قد طلب تفصيل أخبارهم وأحوالهم وموقفهم من النّجاة أو العذاب، وهو تفصيلٌ مبنيٌّ على قوله تعالى على لسان موسى: ﴿وَأَسْأَلُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿١٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾؛ فلذلك طلب تفصيله، كما تدلّ عليه الفاء⁽²⁾.

دلالة الاستفهام في قوله: ﴿فَمَا بَالُ﴾:

الاستفهام
هنا مرادٌ به
التّعجيز، وهو
مفيدٌ في بيانه

قصد فرعون بهذا الاستفهام: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ تعجيز موسى ﷺ، قيل: سألَهُ عَنْ أَخْبَارِهَا وَأَحَادِيثِهَا، لِيَحْتَبِرَ أَهْمَا نَبِيَّانِ أَوْ هُمَا مِنْ جُمْلَةِ الْقُصَّاصِ الَّذِينَ دَارَسُوا قِصَصَ الْأُمَمِ السَّالِفَةِ، وَلَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ ﷺ عِلْمٌ بِالتَّوْرَةِ، إِنَّمَا أُنْزِلَتْ عَلَيْهِ بَعْدَ هَلَاكِ فِرْعَوْنَ، وغرضُ فرعونَ من هذا السّؤال أن يصرّفه عن الحديث عن الله تعالى، لأنّه لا يريد السّماعَ عن إلهٍ غيره.

وذهب البعضُ إلى أنّ سؤالَ فرعونَ كان عن أمرٍ دينيٍّ عند المصريين القدماء؛ لأنّهم كانوا يؤمنون بالبعث؛ لذا عُنُوا بِالتَّحْنِيطِ؛ لتبقى الأجسام كما هي، وتُبعث كما هي، ولهم في ذلك أقوالٌ عديدةٌ مجموعةٌ في كتابٍ يسمّى كتاب: (الموتى)، يضعونه في قبر الميت الذي يموت، وعلى هذا، يكون سؤالُ فرعون لموسى عن حال القرون الأولى، سؤالاً نابعاً عن مذهبهم في الموتى⁽³⁾.

(1) الألوسي، روح المعاني: 8 / 516.

(2) الطّبي، فتوح الغيب: 10 / 182.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 9 / 4735.

سِرّ اختيار كلمة ﴿بَالٌ﴾ دون غيرها:

أصل البال الفِكر، يقال: خطر ببالِي كذا، ثُمَّ أُطْلِقَ على الحال التي يُعْتَنَى بها، وهو المراد، ولا يُنْتَى ولا يُجْمَع إِلَّا شذوذاً، في قولهم: بالات⁽¹⁾، وإيثارُ التعبير بهذه الكلمة هنا، من دقيق الخصائص البلاغية⁽²⁾؛ لدلالاتها على الحال المُهمَّ المُعْتَنَى بشأنها.

كلمة البال
تدلّ على معنى
الحال

دلالة احتجاج فرعون بالقرون الأولى:

احتجّ فرعون على موسى ﷺ بالقرون الأولى في قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؛ للتشغيب على موسى، حين نهضتْ حُجَّتُهُ، بأن ينقله إلى الحديث عن حال القرون الأولى: هل هم في عذابٍ، بمناسبة قول موسى: ﴿أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، فإذا قال: إنهم في عذابٍ، ثارت نائرةُ أبنائهم، فصاروا أعداء لموسى، وإذا قال: هم في سلامٍ، نهضتْ حُجَّةُ فرعون؛ لأنّه متابعٌ لدينهم، ولأنّ موسى لما أعلمه برَبِّه، وكان ذلك مشعراً بالخلق الأول، خطر ببال فرعون أن يسأله عن الاعتقاد في مصير النَّاس بعد الفناء، فسأل: ما بال القرون الأولى؟ ما شأنهم؟ وما الخبرُ عنهم؟ وهو سؤالٌ تعجيزٌ وتشغيبٌ⁽³⁾.

تشغيب فرعون
على موسى، لما
أُعِيْنَتِ الحُجَّةُ

سِرّ التعبير بالقرون دون الأمم:

أثرَ التعبيرَ بالقرون دون الأمم في قوله: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾؛ لأنّ القرن يُطلق ويُراد به: القوم المُقْتَرِنُونَ في زمنٍ واحدٍ، وجمعه قُرُونٌ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [يونس: 13]، وكثُرَ إطلاقُه على الأمة التي دامت طويلاً⁽⁴⁾، فإنّ طولَ بقائها مُعَرِّ لها، وموعِزٌ بأنّها على الحقِّ والصَّواب، وهكذا كان فرعونُ يعتقد أنّه كذلك، فالأسرُّ الفرعونية عمّرت طويلاً.

القرن الجيل أو
الأمة المُقْتَرِنين في
زمنٍ واحدٍ طويل

(1) الألوسي، روح المعاني: 516 / 8.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 234 / 16.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 234 / 16.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 137 / 7.

سِرّ التعبير بـ ﴿الْأُولَى﴾ دون (الماضية):

لعلَّ السَّرَّ في اختيار الوصف بـ ﴿الْأُولَى﴾، على الوصف بالماضية، كونه يسأل عن أُمِّمٍ
قد اندثرت وبادت منذ الماضي السَّحيق، وليس القريب.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والثلاثون،
سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.
مج. 32، 808 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك: 978-9948-732-74-7
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 32: المجلد الثاني والثلاثون، سورة طه من الآية 36 إلى الآية 131.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-732-74-7

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-4565158 بتاريخ 2024/11/15م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»